

المحاضرة التاسعة: جدلية العقل والفضيلة: دراسة استقصائية شاملة في الأخلاق القديمة
وتجلياتها في الفلسفة الإسلامية

(الجزء الثاني)

علي كريم

الجزء الثاني: الفلسفة الأخلاقية عند أرسطو: الواقعية الإنسانية والوسطية

يمثل أرسطو، تلميذ أفلاطون النجيب والناقد، تحولاً في المنهجية الأخلاقية من "المثالية المتعالية" إلى "الواقعية المحايدة". في كتابه العمد "الأخلاق النيقوماخية"، يؤسس أرسطو للأخلاق كعلم عملي (Practical Science) يختلف في دقته ومنهجه عن العلوم النظرية كالرياضيات⁵.

تفكيك "مثال الخير": نقد أرسطو لأستاذه

يبدأ أرسطو مشروع الأخلاقي بعبارته الشهيرة "أفلاطون صديق، ولكن الحقيقة صديق أصدق". يوجه أرسطو نقداً بنيوياً لنظرية "مثال الخير" الأفلاطونية، مؤسساً بذلك لاستقلال علم الأخلاق عن الميتافيزيقا:¹³

• تعددية الدلالة: (Equivocity of Good) يجادل أرسطو بأن "الخير" ليس لفظاً متواطئاً يدل على جوهر واحد، بل هو لفظ "مشكك" يُقال على معانٍ متعددة بحسب المقولات.

◦ في مقولة الجوهر: الخير هو الله أو العقل.

◦ في مقولة الكيف: الخير هو الفضيلة.

◦ في مقولة الكم: الخير هو المقدار المعتدل.

- في مقولة الزمان: الخير هو الفرصة المناسبة. (Kairos)
- بما أن المقولات مختلفة وجودياً، فلا يمكن أن يجمعها "مثال واحد" للخير¹⁷.
- الانفصال عن الواقع العملي: يتساءل أرسطو: "ما الفائدة التي يجنيها النساج أو النجار من معرفة 'الخير بحد ذاته' في إتقان صنعته؟". إن الطبيب لا يعالج "الإنسان بحد ذاته" ولا يسعى لـ "الصحة بحد ذاته"، بل يعالج "هذا المريض المحدد" ويسعى لصحته الخاصة. الأخلاق علم يهدف إلى العمل (Action) وليس مجرد المعرفة النظرية، وبالتالي فإن البحث عن خير مفارق لا يمكن تحقيقه بشرياً هو بحث عقيم في مجال الأخلاق⁵.

السعادة (Eudaimonia) والغائية الوظيفية

- يتفق أرسطو مع أفلاطون في أن السعادة هي "الخير الأسمى" والغاية النهائية التي نطلبها لذاتها ولا نطلبها لأجل غيرها. لكنه يختلف في تعريف محتواها. لحسم هذا التعريف، يستخدم أرسطو "حجة الوظيفة"⁵ (Ergon Argument) "
 - لكل شيء في الطبيعة "وظيفة" أو "عمل" خاص (Ergon) يحدد ماهيته وكماله (للعين الرؤية، للسكين القطع).
 - وظيفة الإنسان يجب أن تكون شيئاً يخصه وحده ولا يشاركه فيه النبات (النمو) أو الحيوان (الحس).
 - ما يميز الإنسان هو "النشاط العقلي".
 - إذن، الخير الإنساني (السعادة) هو: "نشاط النفس وفقاً للفضيلة (أو الامتياز العقلاني)، وفي حياة تامة".

نلاحظ هنا تركيز أرسطو على "النشاط (Energeia) وليس مجرد "القدرة" أو "الصفة". فالسعادة ممارسة حياة، وليست حالة سكون. وكما أن "سنووة واحدة لا تصنع الربيع"، فإن فعلاً فاضلاً واحداً لا يصنع السعادة، بل لا بد من الديمومة.⁵

نظرية الوسط الذهبي (The Golden Mean) هندسة الفضيلة

في تحليله للفضيلة الأخلاقية، يطرح أرسطو نظريته الأشهر: الفضيلة هي وسط بين رذيلتين، إحداهما بالإفراط والأخرى بالتفريط. هذا الوسط ليس "وسطاً حسابياً" جامداً، بل هو "وسط نسبي (Relative to us) "يحدده العقل والحكمة العملية".⁷

جدول توضيحي لنظرية الوسط الأرسطية:

مجال الشعور/الفعل	رذيلة التفريط (Deficiency)	الفضيلة (الوسط - Mean)	رذيلة الإفراط (Excess)
الخوف والثقة	الجبين (Cowardice)	الشجاعة (Courage)	التهور (Rashness)
اللذة والألم	تبدل الشعور (Insensibility)	العفة (Temperance)	الشراهة/الفجور (Intemperance)
إعطاء المال	البخل (Stinginess)	الكرم (Generosity)	الإسراف (Profligacy)
تقدير الذات	صغر النفس (Pusillanimity)	عظم النفس (Magnanimity)	الخيلاء/الغرور (Vanity)

مجال الشعور/الفعل	رذيلة التفريط (Deficiency)	الفضيلة (الوسط - Mean)	رذيلة الإفراط (Excess)
الغضب	ضعف الشخصية	الحلم (Mildness)	حدة الغضب (Irascibility)
العلاقة الاجتماعية	الفضاظة	اللطف/الصدقة	التماق

يؤكد أرسطو أن إصابة الوسط أمر صعب، مثل إصابة مركز الهدف. فالوسط ليس مجرد "حل وسط" باهت، بل هو "ذروة" الكمال في الفعل. يتطلب تحديد الوسط مراعاة: الزمان المناسب، والشخص المناسب، والقدر المناسب، والسبب المناسب. هذا يعني أن الغضب الشديد قد يكون فاضلاً (وسطاً) إذا كان موجهاً ضد ظلم فادح في الوقت المناسب.⁷

الحكمة العملية (Phronesis) وضعف الإرادة (Akrasia)

إذا كان الوسط متغيراً ودقيقاً، فمن الذي يحدده؟ يجب أرسطو: إنه الرجل الحكيم (Phronimos) الذي يمتلك "الحكمة العملية" (Phronesis).

- الحكمة العملية: هي فضيلة عقلية، لكنها تختلف عن الحكمة النظرية (Sophia). الحكمة النظرية تعني بالحقائق الأزلية (الرياضيات، الإلهيات)، بينما الحكمة العملية تعني بما هو متغير وجزئي، وتهدف إلى اتخاذ القرار الصائب في المواقف الحياتية المعقدة⁵.

- تكامل العقل والخلق: يؤكد أرسطو أنه "لا يمكن أن تكون حكيماً عملياً دون أن تكون فاضلاً أخلاقياً". لماذا؟ لأن الرذيلة تفسد "مبدأ" الفعل، وتجعل الإنسان يرى

الغاية الشريرة خيراً. وبالمقابل، "لا يمكن أن تكون فاضلاً أخلاقياً بالكامل دون حكمة عملية"، لأن الفضيلة بدون بصيرة عقلية تتحول إلى اندفاع أعمى⁵.

- ضعف الإرادة: (Akrasia) خالف أرسطو سقراط الذي أنكر وجود ضعف الإرادة (مدعياً أن من يعرف الخير يفعله). يحلل أرسطو ظاهرة "أن يعرف الإنسان الخير ويفعل الشر" عبر التمييز بين "المعرفة بالقوة" (أن تملك المعلومة) و"المعرفة بالفعل" (أن تستحضرها لحظة الفعل). تحت ضغط الشهوة، قد تغيب المعرفة الفعالة، فيتصرف الإنسان ضد قناعاته العقلية⁵.

حضرات فلسفة الأخلاق